وأن يكسبها خصائص قومية محلية . فغدا عمله الادبي عينيا مطلقا يضرب جذوره في الواقع الحاضر ويتطلع الى الافق الانساني البعيد .

تتألف مسرحية توفيق فياض القصيرة من فصلين ، وهي مونولوج ، اذ تدور حول شخصية واحدة هي سامي مدرس الادب والتاريخ . ولعل عنوان المسرحية يحمل دلالة كبيرة . فالجنون موضوع ذو اهمية خاصة في تاريخ الحضارة الانسانية ، وجد التعبير عن نفسه منذ الحضارات البدائية حيث كان للكهان والاطباء المشعوذين الذين ادعـــوا القدرة على الاتصال بالقوى الغيبية أهمية خاصة وكانوا يسمون بالمجانين . كذلك أعلى الاغريق من أهمية الجنون فعده أفلاطون في كتابه **فيدراس** هبة من السماء فكان جنونا الهيا . كما عرف التراث العربي عددا كبيرا من المجانين حتى تجسدت هذه الصورة في أسطورة مجنون ليلى الذي أصبح فيما بعد ـــ في الادبين العربي والفارسي ـــ رمزا للمتصوف الذي يبحر بروحه الى دنيا الله وتفنى ذاته الصغرى في الذات الكلية الكبرى، ويخلق لاوعيه عوالم خارقة يرفضها المنطق . وظلت صورة المجنون تتكرر في حضارات مختلفة وعصور متباينة حتى وجدت التعبير الامثل عن ذاتها في العصر الحديث في الحركة السريالية التي ظهرت في فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى . فقد رأى السرياليون ان المجانين ـــ وهم المنحرفون عن الحقيقة الخارجية ـــ يعرفون عن الحقيقة الداخلية أكثر مما يعرف العاقلون ، وهم يستطيعون ان يكشفوا للعاقلين حقائق لا يمكن النفاذ اليها بدونهم . وجعل السرياليون للجنون أعيادا فاحتفلوا عـــام ١٩٢٨ باليوبيل الذهبـــي للهستيريا .

كانت مسرحية توفيق فياض بيتا للجنون لان الشخصية الوحيدة فيهـــا ، سامي ، يعيش وحيدا في ظل كابوس مرعب ، لذلك فهو يحاول ان يهرب من عالم الواقع الفاسد الى عالم ما فوق الواقع الذي يبنيه لاوعيه . ويتحول تداعي الكلام تداعيـــا حرا الى هذيان يجسد مأساة سامي فيعانق الماضي والحاضر والمستقبل . وتفوّر رؤياه نماذج أصلية مختزنة في أعماق لاوعيه فتخرج أساطير كررها الانسان في كل مكان عبر العصور . من هنا كانت هذه المسرحية اقرب ما تكون الى القصيدة : فالشعر ـــ كما يقول اليوت ـــ يميل نحو الدراما والدراما تميل نحو الشعر .

تعبّر **بيت الجنون** ـــ من حيث البناء والرمز ـــ عن اسطورة الموت والانبعاث ، وهي الاسطورة الاساسية في تاريخ الحضارة الانسانية . فقد ظهرت في الديانات الوثنية في المناطق المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، فكانت شخصيات تموز وأدونيس واوزيريس وآتيس صورا مختلفة للاله الميت المنبعث . كما لعب اورفيوس عند الاغريق ـــ بهبوطه الى العالم السفلي وصعوده ثانية ـــ الدور ذاته الذي لعبه اله الخصب الميت المنبعث . وقد أكدت المسيحية أهمية نموذج الموت والانبعاث فجسدت حقيقة انسانية مطلقة هي توق الانسان الى اكتساب الحياة الابدية وأعطت قيامة المسيـــح أملا بالانبعاث لكـــل انسان .

ولعل الاله الذكر لا يلعب الدور الاساسي في أسطورة الموت والانبعاث ، فتغدو الالهة الانثى ، أمه ، حجر الزاوية في البناء الاسطوري ، وتكون في الوقت نفسه عروسا له . ويكون العشق محورا ترتكز اليه الاسطورة : فيتصل الاله الذكر بالام العروس ويخصبها فيتم فعل الخليقة وتخضر الحياة في العرق الذابل . وتظل المرأة الرمز المحوري في الصور الحضارية المختلفة : فتلعب العذراء مريم ام المسيح دورا أساسيا في الدين المسيحي ، ويتخذ المتصوف المسلم صورة المرأة رمزا لله ، ويفني جسده في التوق اليها ، لتتوهج روحه وتسمو اليها وتفنى ذاته في ذاتها . فكانت ليلى صاحبة قيس بن الملوح ، ولبنى